النَص القرآني والمسّ المطهّر قراءة في المفهوم عند حاج حمد*

Quranic text and purified touch reading in the concept of Haj Hamad

د.مليكة حسني *

تاريخ الإرسال: 2021/01/25	تاريخ القبول: 2021/06/24	تاريخ النشر: 2021/12/20

الملخص:

يسعى هذا المقال إلى تقديم مقاربة دلالية للنَص القرآني - باعتبار مصدريته الإلهية المتعالية-، تُراجع فيه بعض المسلّمات التراثية؛ بعدما استند إلى الانضباط الدلالي لمفرداته كضابط أصيل لهذا النَص. وتُظهر هذه المقاربة التي تناولت لفظتي "المسّ" والطّهر" الجدوى الموضوعية لاعتماد آلية الدّقة الدلالية من حيث نجاعة القراءة المطلوبة لاكتناه مكنونات القرآن العظيم، وكيف شكّلتا الأنموذجية المثلى للقارئ الفعلي، إذ تبيّن أنهما مفتاح مكين في سبيل الممارسة القرائية القرآنية.

الكلمات المفتاحية: النَص القرآني، الانضباط الدلالي، المسّ، الطّهر، القارئ.

Abstract:

This article seeks to present a semantic approach to the Qur'anic text by reviewing some of the traditional axioms. After having bet on the semantic discipline of its vocabulary as the original control of this text. This approach, which deals with the terms "touch" and purity, shows the objective feasibility of adopting the mechanism of semantic precision in terms of the reading efficiency required for the content of the Quran, and how they formed the ideal model for it. real reader, as it turned out to be an absolute key for the sake of the practice of Quranic reading.

***Key words**: Quranic text, semantic discipline, touch, purity, the reader.*

المؤلف المرسل: مليكة حسني miki_rabaa@hotmail.fr

*جامعة الجزائر2_ أبو القاسم سعد الله_ miki_rabaa@hotmail.fr

1- مقدمة:

يشكل القرآن الكريم مركزية بارزة في الفكر العربي، قديمه وحديثه، لا سبيل إلى إنكارها. ولا أدل على فاعلية هذا الحضور من أنه صير حضارة العرب "حضارة نص"[1]، حيث توالت مقارباته في مستويات متعددة وعبر مناهج مختلفة. وقد حملت هذه المقاربات - على اختلافها-، حقيقة لا تمارى بشأن المتن الإلهي العظيم الذي ينضح بالثراء والتنوع والإنتاجية المتوالدة على الدوام، لما يمثله من نبع ثر لا ينضب مصداقا لقول الله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾ (سورة الكهف: 109). وهو ما يؤكد "كرم" هذا النص وعطاءه الذي لا ينتهي ولا ينقطع كما يشهد بذلك المولى عز وجل: ﴿إنه لقرآن كريم﴾(سورة الواقعة: 77).

وفي سياق هذا الاشتغال الذي لا يتوقف، نستعرض مقاربة المفكر محمد أبو القاسم حاج حمد، من خلال بسط منهجه القرائي للنص القرآني الذي يستدعي التوقف عنده، لما أبان عنه من تركيز لافت وتناول مستجد، يسميه إعادة كشف لهذا النص على اعتبار أنه نص معرفة مطلق لما يحمله من منهجية معرفية كونية ضابطة تجعل منه معادلا موضوعيا للكون وحركته*.

وحتى يتسنى لنا ذلك، نستعرض مسألة طرحه لمفهومي "المس" و"الطهارة" وطبيعة علاقتهما بفعل القراءة التي يستدعيها النص المتعالي وهو يقرأ قوله عز وجل: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم (75) وإنه لقسم لو تعلمون عظيم (76) إنه لقرآن كريم (77) في كتاب مكنون (78) لا يمسه إلا المطهرون (79) تنزيل من رب العالمين (80)﴾ (سورة الواقعة). فإلى أي مدى تتجلى في هذا الأنموذج القرائي مفاصل منهج حاج حمد في مقاربة هذا النص، وما مدى جدة الطرح الذي يحمله مع الآليات المعتمدة في صياغة ما انتهى إليه من تصور؛ وما طبيعة التباين الذي خلصت إليه القراءة التي يتبناها؟

2-القراءة من داخل النص وشرطية تحرير الذات:

يرى حاج حمد أن قراءة النص القرآني بشكل يترجم حقيقة هذا النص المتعالي لا يمكنها أن تتم إلا من خلال آليات يستمدها القارئ من النص ذاته؛ بل نجد أن النص قد دعا إليها. وتقوم هذه القراءة على استكشاف النص من داخله عبر ما سماه محمد أبو القاسم "القراءة القرآنية"[2].

وتتم هذه الأخيرة بأدوات يقدمها النص ذاته لقارئه، لأنه لا سبيل إلى قراءته إلا عبر ما يستدعيه النص القرآني ذاته. وعلى هذا الأساس يوضح طبيعة هذه القراءة قائلا: "منهجي يرتبط بداخلية القرآن، محاولا الاستماع إلى (وحيه الذاتي) من داخله. (...) هذا التوجه للقرآن من داخله يستوجب التخلي النفسي والعقلي عن الدوافع الذاتية والمؤثرات فلا نتحد بغرض خارجي"[3]. فحتى نتوصل إلى قراءة ما يوجد في النص لا ما نعتقد أنه كائن فيه أو ما نحمله عنه عبر قراءات قبلية، لا بد أن ننقاد إليه بوعي متيقظ يتم بتوجيه من النص ذاته. هكذا يزعم مؤلف "العالمية الإسلامية الثانية" أنه يقدم مفتاح القراءة التي تستنطق النص بأكبر قدر ممكن من الموضوعية حتى وإن بدت صعوبة تحقيقها قائمة، لاعتبارات متعددة تتعلق في شق منها بالنص ذاته وفي شق آخر بقارئه. فالنص القرآني مع تتالي قراءاته وتفاسيره لا يعدم أن يحتفظ بكينونته النصية المتعالية من حيث كونه النص الأوحد الذي لا سبيل إلى نسخ ثان يوازيه أو يجاريه، لمصدريته الإلهية.

3- سلطة النص وتشكيل قارئه:

ومن ثمة، تتأكد حقيقة كينونة النص القرآني كقوة موجهة للقراءة، وإن حملت هذه القراءة بصمتها الشخصية - وتلك بديهية لفعل القراءة شريطة ألا تكون قراءة متحيزة؛ أو كما قال أحد الدارسين : "على الرغم من أنه لا يمكن فصل القراءة النسبية في موضوعيتها عن ذاتية القارئ، وخبرته الخاصة، وانتظاراته من النص، فإن ذلك لا يعني أن النص "إمعة عديم الشخصية"، فهو "حمال ذو أوجه" ولكنه ليس حمالا لكل الأوجه أو لأي وجه كان. فللنص حد أدنى من الشخصية والهوية"[4]-؛ بل إن "شخصية" النص القرآني أو ما يسميه حاج حمد "منهجية القرآن المعرفية" تأخذ بيد القارئ إلى التعرف على

أبجديات قراءته ومن ثمة حسن تلقيه وفهمه. وهذا ما يترجم دور النص في "التأثير على القارئ وتوجيه استجاباته (...) بل أكثر من ذلك أنه يشارك في صياغة القارئ نفسه"[5] بما يمتلكه (النص) من قوة توجيه.

ولعل هذا ما سعى حاج حمد إلى تحقيقه من خلال تحرير كينونته القارئة من ذاتيتها حتى يتسنى له أن يمارس قراءة داخلية للنص. وقد أكد طه جابر العلواني ذلك وهو يصف سلوك حاج حمد كقارئ متدبر بأنه "يأتي القرآن العظيم محاولا التحرر من فكره وثقافته الوضعية وأي أفكار أو فلسفات كان قد اكتسبها، ليجلس في رحاب القرآن الكريم متدبرا، متذكرا، متفكرا بفقر شديد إليه واستسلام لمحدداته ومؤشراته وموجهاته للفهم"[6].

هكذا يحاول حاج حمد أن يهيئ مناخا يكاد يشبه حالة من الخلوة، أو طقسا من التصوف الذي يجتث فيه ذاته من ذاته عندما يزعم أنه يسعى إلى أن يحرر كينونته القارئة من كل ما يمكن أن يجعلها ترفد بين ثناياها حمولة توجه النص بدل أن تتوجه به، من خلال سعيه إلى "تفريغها" من كل ملابسات الذات القارئة. إنه يدعو إلى ما يشبه عملية التطهير أو التخلية لهذه الذات القارئة من كل قبليات القراءة والتماس معها، سواء من ذاتها أو من خلال قراءاتها؛ لتغدو هذه الذات القارئة مؤهلة لأن تباشر النص دون وسائط تعمل على توجيه القراءة ومن ثمة إنتاج النص. ويوضح حاج حمد هذا المنحى في تعاطيه مع النص قراءة بالقول:"بدأت أركز في كل محاضراتي على ضرورة الجلوس إلى القرآن، دون فرضية مسبقة، حتى لا يطوع النص للغرض الذاتي، حداثيا كان أو تراثيا أصوليا"[7].

فالسلطة النصية للقرآن الكريم ليست مناط جدل بالنسبة لحاج حمد، بل هي أبعد وأعمق من ذلك، لأن "مصدرية" النص وفرادته تحمله كقارئ حصيف على الانصياع عن طواعية لسطوته ومراجعة الكثير من "المسلمات" التراثية، بعدما اكتشف أنها تصطدم بماهية هذا النص الإلهي المتعالي الذي لا يشبه أي نص.

وحتى يحقق هذه القراءة، دعا إلى إعادة النظر في طبيعة التواصل مع النص القرآني. فلكي يؤمن لنفسه - كقارئ - أعلى مستويات "الشفافية" ومن ثمة الفهم حينما يباشر النص المتعالي، عليه أن "يتخلص" من "النصوص الموازية" التي تحيط بالنص القرآني من تفاسير وقراءات، لأن الاعتماد عليها بشكل حصري سيعمل على بث نوع من "التوجيه" ومن ثمة التأثير على "صفاء" التواصل المباشر بينه كقارئ مشفر لإشارات النص ودلالاته وبين النص كمتن للدلالة والمعنى ومصدر للفهم؛ بل ستعمل هذه الأخيرة (النصوص الموازية) على تشكيل سياج حول النص يمنع القارئ من تحقيق فعل القراءة بشكل مباشر.

لقد حدد نقطة بداية عملية القراءة من النص حتى يكون بإزاء فعل يتعرف على النص ويكتشفه، لا فعل يحمل افتراضاته وتكهناته وانتظاراته من خارج النص أو من هامشه؛ لأن الأمر سيكون شبيها في حركته بفعل العنعنة (النقل عن النص وتوالي النقول عن بعضها البعض) الذي ينقل النص بإضافات أو حواشي، ما يبعد القارئ عن مصدر القراءة (النص الأصلي) بسبب الأسيجة التي أخذت تلف النص عبر هذه العنعنة التي اتخذت طابع "الناطق الرسمي" عنه.

لهذا السبب، يرى حاج حمد في شأن تهيئة مناخ قراءة ذات "مصداقية" تجتهد في الاقتراب من "جوانية" النص أنه يتعين علينا كقراء أن نتحرر من القراءة "الجاهزة" التي ورثناها من كتب التراث، لأنها ليست بأي حال من الأحوال هي نفسها النص بل هي نصوص عن النص. فعندما ندرك هذه الحقيقة التي وجب ألا تغيب عنا، نتبين مدى الشطط الذي وقع فيه "دعاة" تأبيد التراث على حساب عجلة الزمن ومزامنة العصر، علما أن "صناع" التراث أنفسهم ما بدر منهم هذا الادعاء، ولا زعموا لأنفسهم تقديسا، لأنهم في الأساس نتاج "اجتهاد" و"إبداع" قد يصيب فيفوز بالأجرين وقد يخطئ فيأخذ أجرا واحدا تثمينا للمحاولة ودفعا للاستمرار في إتيان المزيد من الاجتهادات والمحاولات.

ويؤكد حاج حمد ذلك عندما ينتقد هذا المنحى الذي جر إليه التراث بعد أن "هيمنت نسبية البشر على مطلق الوحي وحددته بمتعيناتها الظرفية مما أنتج العديد من التفسيرات والتأويلات المتضاربة التي اتخذت من ذاتها مرجعيات بديلة من القرآن"[8]. وهي إشارة صريحة إلى رفع ما يمكن أن نسميه "وصاية التراث" عن النص من جهة وعن الحاضر من جهة أخرى.

ومن ثمة، لابد من توفر الظروف المواتية لإنجاز فعل القراءة سواء فيما تعلق بالنص أو بقارئه، لأن "النصوص ليست مجرد مرايا تعكس أفكارنا، بل هي أقرب إلى المصابيح التي قد تتلون أنوارها بألوان ملابسنا، ولكنها تظل حقيقة موضوعية مستقلة عن كياننا، وإن تفاعلت بقوة مع عوالم أفكارنا"[9]. فمثل هذه الحقيقة "تحمي" النص من الذوبان والتفريط في كينونته التي لا يمكنها بأي حال أن تتلاشى أمام أي قراءة، لأنه يبقى دوما مصدرها الأول ولا يمكنها أن تتطابق معه.

إذن، أول خطوة في مسار قراءة النص المتعالي- كما يطرحه حاج حمد - هو أن يتجرد القارئ ما أمكنه ذلك من أكبر قدر من ما قبليات التواصل مع النص، أو ما يمكن أن نسميه الترسبات والتراكمات المحيطة بالنص والأحكام الجاهزة التي تحول دون التواصل المباشر معه، في سعي واع من القارئ لتجاوز تلك "الوساطات" التي تؤطر طبيعة القراءة قبل أن يحتك مع النص. وهي خطوة تحاول ما أمكنها أن تكون لقاء "عذريا" - إن صح الوصف-، لا يحمل معه إلا لحظته الراهنة بهدف أن يتمكن القارئ من ممارسة فعل القراءة على أكمل وجه من جهة، ومن أخرى يفسح للنص المساحة الحقيقية لمصدريته في فعل القراءة ولا يكون (النص) مناسبة مواتية لإفراغ جعبة القارئ.

4- اصطلاحية المفردة القرآنية

تبلورت مفاهيم قرآنية عديدة بأشكال مختلفة تبعا لاعتمادها على طبيعة القراءة المنتهجة في التصدي لفهم النص القرآني. ومن أمثلة ذلك مفهوم المس والطهارة في قراءة

القرآن الكريم، إذ توقف عنده المفسرون والمؤولون والدارسون وقدموا بشأنه تخريجاتهم كما اطمأنت إليها معارفهم.

لقد تواطأت الأفهام، وهي تقرأ الآية القرآنية الكريمة من سورة الواقعة: ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ التي تتصدر أغلفة المصحف الشريف على "تفسيرها" بأنها تعني طهارة الأبدان كشرط ملزم وواجب التنفيذ حتى "تمنح" رخصة قبول قراءة هذا الكتاب العظيم كما تناقلته عن التراث التفسيري والفقهي، باعتبار أن طهارة الجسد هي "المعبر الشرعي" لقراءة القرآن. ولا يجوز على غير "المتطهر" جسدا من الحدثين الأصغر والأكبر أن يأتي هذا الكتاب قراءة.

ففي تفسير الطبري نجده يورد مجموعة من الآراء بشأن تفسير هذه الآية، ترى إحداها :"هو في كتاب مصون عند الله، لا يمسه شيء من أذى، من غبار أو غيره"[10]، فيما ترى أخرى أنه "لا يمس ذلك الكتاب المكنون إلا الذين طهرهم الله من الذنوب"[11]، بينما يذهب رأي ثالث إلى إقرار الاختلاف "واختلف أهل التأويل في الذين عنوا بقوله "لا يمسه إلا المطهرون" فقال بعضهم : هم الملائكة"[12]. ثم يخلص إلى شيء من التوفيق بين هذه الآراء عندما يقول: "والصواب من القول في ذلك عندنا أن الله جل ثناؤه أخبر أنه لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون، فعم بخبره المطهرين، ولم يخصص بعضا دون بعض، فالملائكة من المطهرين، والرسل والأنبياء من المطهرين، وكل من كان مطهرا من الذنوب فهو ممن استثني وعني بقوله: "إلا المطهرون""[13].

ثمة ما يستدعي توقفا واستفسارا يبدو ضروريا قبل الخوض في أعماق المسألة. فما علاقة قراءة القرآن بطهارة البدن؟ ألا تتوجه هذه القراءة عند ربطها بالوضع "الخارجي" للبدن إلى أن يتوقف التعامل مع النص المقروء (القرآن الكريم) عند نفس الحدود السطحية أي الاكتفاء بالتمظهر الخارجي لهذا النص متمثلا في ما تضمنه من

صفحات وحسب؟ قد يكون الرد أن الأمر يتعلق بعبادة تتطلب الطهارة مثل الصلاة. لكن الله تعالى يأمرنا مثلا بإقامة الصلاة (بما تحمله من غائية توطين النفس على الفضيلة) لا أن نأتي حركاتها فحسب ونحن على وضوء. ونعزز هذا الاستفسار بأن نشير إلى طبيعة "اللام" في الآية الكريمة، حيث وردت نافية للجنس لا ناهية عن الفعل، أي حصر "المس" على المطهرين. وهذه الحصرية وهذا الاستثناء لا يستدعي "تحريم" قراءته على من هم خارج هذه الدائرة، بل هي ضرب من "التحفيز" على الترقي في درجات تلقي النص والغوص في مكنوناته حتى يلتحق من هم دونهم بهم بعد السعي لذلك.

بالعودة إلى حاج حمد الذي رسم منهج قراءته، نجده يسلك منحى قرائيا يغاير في منطلقاته وفي نتائجه ما انتهى إليه الطرح التراثي، إذ يقول "لا يورد القرآن "مس" بمعنى "لمس" إطلاقا، ولهذا حين قال الله : ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ فقد قصد "النفس" الطاهرة وليس "البدن"، فالبدن "يلمس" ولا "يمس"[14]. ونلحظ في هذا الاعتراض على ما درج عليه التناول التراثي أنه أعمل "العقل التحليلي" في القراءة بما يقدمه النص ذاته لقارئه.

5- مفهوم "المس" و"الطهارة" والتأسيس لقراءة النص:

لذلك، عندما يتوقف عند مفهوم المس والطهارة، يستعرضه بشكل مستجد وبتركيز ظاهر يختلف عما عرضته كتب التفاسير بعد أن يثير الانتباه إلى مسألة مركزية في لغة القرآن، أسماها اصطلاحية اللغة القرآنية تبعا للمنهجية المعرفية وللانضباط البنائي للنص القرآني. يقول :"والمس هنا غير اللمس، فالمس وجداني عقلي في حين أن اللمس عضوي بدني يرتبط بقرطاسية الكتاب ﴿ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ (7 الأنعام) في حين أن معنى المس يختلف إذ يرتبط بالمشاعر ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ (275 البقرة) وقد أكدنا في كثير من أبحاثنا ودراستنا أن لغة القرآن مصطلحية ومتناهية الدقة لا مجاز أو مترادف أو مشترك، فدقة الاستخدام الإلهي لذات مفردات

اللغة العربية كدقة مواقع الحروف كمواقع النجوم. أما المطهرون الذين يمسون معاني القرآن المكنونة فهم من طهرهم الله (المطهرون) وليسوا فقط المتطهرين من عند أنفسهم بالماء، وقد تم الربط عضوياً بين مس القرآن ومكنونه وكرمه في سياق واحد لآيات الواقعة"[15].

هكذا يعزو حاج حمد اختلاف المفهوم الذي يقدمه عما ساد في كتب التراث إلى طبيعة القراءة التي اعتمدت فهم النص من داخله. وقد أمكنه الخلوص إلى تأكيد أهمية "المفردة القرآنية" باعتبارها المفتاح الأقدر على إنجاز الفهم الأقرب للنص، إذ "لا يخفى أن المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام. وبعض الجهل بالجزء يفضي إلى زيادة جهل بالمجموع"[16]. وتتأكد أهمية الإلمام بالمفردة القرآنية لما لها من دور في تحديد المعنى وضبط الدلالات القرآنية. وهو ما ينطبق على هذه الآية الكريمة التي اتخذ المنحى التفسيري لها في كتب التراث سلطة تحريم قراءة القرآن على غير المتطهر بدنا. بينما هذه السلطة لا يمتلكها أحد من الخلق، لأنها خالصة لله. غير أن من "يتوهم من اللفظ ضد ما أريد، فيذهب إلى خلاف الجهة المقصودة"[17] بل إن من فداحة سوء ضبط الكلمة أن تؤدي إلى أحكام باطلة كما يتابع الفراهي بالقول: "الخطأ في حد كلمة واحدة أنشأ مذهبا باطلا وأضل به قوما عظيما وجعل الملة بددا"[18]. وقد اعتمد حاج حمد على هذا المنحى في القراءة بعدما تبين وجود تباين وعدم تماثل بين لغة القرآن ولغة العرب من حيث استعمال مفرداتها بشكل مختلف، ما أدى به إلى القول بانتفاء ضروب الترادف والاشتراك عن النص القرآني، لأنه نص بني على ضبط ودقة في وضع الحرف المفرد فما بال الألفاظ والتراكيب. وقد نبه إلى هذه المسألة غير قليل من الدارسين من أمثال محمد شحرور في مجمل مؤلفاته باعتبار (نفي الترادف) أساسا منهجيا في قراءته للنص القرآني، حيث يقول بأن "التنزيل الحكيم خال من الترادف، في الألفاظ وفي التركيب. (...) ومن يقول بالترادف في المفردات

والتراكيب فكأنه يقول إن التنزيل الحكيم نزل على مبدأ ما أعذب هذا الكلام لا أكثر من ذلك مقارنة بالشعر الذي لا يعيبه الترادف والكذب. (...) لذا فإننا لا نأخذ به الآن".[19]

من هنا جاءت مقولة حاج حمد عن اصطلاحية اللغة القرآنية التي يعتبرها أس الاختلاف بين القراءة التي أخذ بها ويدعو إليها وتلك التي اعتمدها التراث ويرفض استمرارها بسبب مستجدات منهجية ومعرفية لعدم التمييز بين طبيعة التوظيف القرآني للغة العربية وبين استعمالها البشري، وهنا حدث الخلط والالتباس بعدما سحبت اللغة البشرية على لغة القرآن، فـ"فسر البعض يمسه بيلمسه، والمس في اللغة العربية المتميزة وفي استخدام القرآن هو ما يصيب في كلية الموضوع وأعماقه أو وجدانه، لذلك نجد القرآن يقول: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب (38)﴾ أي نصب وإعياء"[20]. ويواصل في الاستدلال على وجاهة التخريج الذي توصل إليه في فهم دلالة المس والطهارة ومن ثمة طبيعة القراءة المطلوبة للنص القرآني بأن يربط فعل "المس" بفعل "الطهر". ويتوقف مليا عند كلمة الطهر والصيغة الصرفية التي وردت فيها، إذ ينبه إلى أن صفة الطهر لم ترد في الآية في صيغة الفاعلية (أي المتطهرون الذين مارسوا فعل الطهر) بل وردت في صيغة المفعولية (المطهرون أي الذين طهروا حيث وقع عليهم فعل الطهر. والفاعل هنا هو الله تبارك وتعالى الذي طهرهم فيسر لهم سبحانه أن يقتربوا من مكنون هذا النص بقدر طاقتهم).

هكذا تبدو أهمية اعتماد المفردة القرآنية في قراءة وفهم النص القرآني باعتبار استراتيجيتها في النسج القرآني، من منظور أن الأصل أرقى من الفرع، وهذا ما ينطبق على لغة القرآن في مقابل لغة العرب وهو ما يشير إليه هذا التساؤل التحليلي : "هل لنا أن نجعل من لغة البدو وشعرهم ونثرهم وديوان جاهليتهم مرجعا في فهم القرآن أو أن نجعل لغة القرآن مرجعا ذاتيا لفهم القرآن أولا، ومرجعا وديوانا للغة العرب ثانيا، تقوم هذه

اللغة به، ويصادق عليها به كذلك، ويهيمن عليها به؟ أنهيمن على القرآن بلغة العرب أم نهيمن بلغة القرآن على كلام العرب؟"[21].

لقد اتضح من خلال التسليم لـ"ما درج عليه لسان العرب" من دون إمعان النّظر فيه، والذي أخذ يساوي بين الاستخدام البشري للغة العربية وبين توظيفها الإلهي مدى ما اعتورها من خلل، يعود بالأساس إلى ما سمّاه حاج حمد بالعائد المعرفي للكلمة فشتان بينهما ﴿وما علّمناه الشّعر وما ينبغي له إنْ هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ﴾(سورة يس: 69) كما هو شأن المفهوم الذي تلبّسه "المسّ" والمطّهرون" في المتون التّراثية إذ "ربّما ترى أنّ الخطأ في معنى كلمة واحدة يصرف عن تأويل السورة بأسرها. فيتوجّه المرء إلى سمت، كلّما مرّ فيه بعُد عن الفهم"[22].

وسنكتشف مع حاج حمد ما ترتّب عن القراءة بمعهود العرب إلى أي مدى أثّر على الصياغة الكلية للآية الكريمة وما انجر عنها من تجاوز في سلطة التحريم التي منعت بموجبها تناول القرآن الكريم عن كل من لم يأت وضوءه كاملا، بعدما "فسّرت بأنّها تعني - في باب فقه العبادات - أن المؤمن لا يمكنه أن يمسّ المصحف من دون طهارة، أي من دون القيام بشعائر الوضوء"[23] تأكيدا لمسألة الطهارة الجسدية، فبعدما أخذ الفهم التّراثي يساوي في المعنى بين المسّ واللمس للكتاب المنزل ومن ثمّة أظل بظلاله على معنى الطُهر الذي تحوّل بفعل تأثير دلالة "اللمس" إلى المعنى الحسي، فيما ترشدنا القراءة القرآنية إلى مفاتيح كثيرة تضبط المعنى بأكبر متاح من الموضوعية استنادا إلى "توجيهات" النّص عينه.

ويورد في هذا الشأن مفاهيم بعض الألفاظ التي ألّفت الصياغة الكلية للآية تلافيا لقراءة "التعضين" التي تحمل عناصر نقضها بابتسارها لمعاني القرآن. ومن هذه الألفاظ لفظة "القرآن" في مقابل "المصحف" الذي طابق بينهما التّراث. وقد أوضح حاج حمد أنّ قراءة القرآن من قبل الرسول الخاتم - وهو أول قارئ - لم تكن من مصحف

مكتوب بل كانت قراءة مما تلقاه من ملك الوحي جبريل عليه السلام واستقر في "صدره"، فـ"هذه الآية لما نزلت على قلب محمد لم تكن المصاحف متداولة، ولا جمع القرآن بين دفتي كتاب"[24] فما موضع اللمس في هذه الحالة؟

ويضيف إلى هذا اللفظ ضبطا آخر ورد في أول سياق هذه الآية. ويتعلق بصياغة القسم التي ارتبطت بمواقع النجوم، في إشارة تقابلية مع الضبط والدقة التي يمتاز بها القول الإلهي، فليس في لغة القرآن ما يعجزها عن توظيف مثالي تكون فيه مستغنية عن التوسل بالمترادف والمشترك، من حيث إنه يعتبر نقيصة في ألفاظ اللغة، إذ "لا يجوز أن يدل اللفظ على معنيين مختلفين حتى تضاف علامة لكل واحد منهما"[25]، لأن ما نظنه مرادفا أو مشتركا يحمل معنى جديدا أو مضافا يفارق فيه اللفظ الآخر، كما أنه لا مزية في أمر كهذا بل على العكس من ذلك إذ "ليس من الحكمة وضع الأدلة المشكلة"[26] خاصة إذا كان الحديث عن القرآن "المبين" الذي يسره تعالى للذكر وسبيل بيانه ويسر ذكره لا يتواءم مع توظيف الاشتراك ولا المترادف فـ"كما لا يجوز أن يدل اللفظ الواحد على معنيين، فكذلك لا يجوز أن يكون اللفظان يدلان على معنى واحد، لأن في ذلك تكثيرا للغة بما لا فائدة فيه"[27]. إذن الذي خلق هذا الكون بدقة مواقع النجوم هل يعجز كلامه أن يكون على شاكلة صنعه؟ سبحانه الخلاق العليم. ومن ثمة تتماسك مقولة اصطلاحية لغة القرآن، لما تقدمه من تحليل متزن ومقنع إلى حد معتبر.

ويسترعينا في قراءة حاج حمد حرصه على تعليل ما يذهب إليه وبحثه عن الإقناع والبرهنة عندما يعزز هذا التخريج ويدرج لفظة "الكريم" و"المكنون" لتكون دعما موضوعيا لمنهج القراءة من حيث إيلاء المفردة القرآنية مكانتها من التأطير والبلورة لاستكشاف المعنى. ذلك أن الكرم الذي يتصف به النص القرآني المتلازم مع مكنونيته يعضد الحديث عن نفس مقبلة بكليتها على كلمة السماء حتى تسمو بعطاء من وكرم من رب السماء.

إذن، الطقس الذي يلج إليه قارئ النص القرآني مسلما قياده لآياته يستدعي أن يتهيأ لهذا "التلقي"، وليس كل القراء على مستوى واحد في ذلك، فمن يتمكن من "الإبحار" في عوالم هذا الكتاب العظيم ويقترب من بعض مكنوناته لا يكون إلا من استعد لهذه المعارج وأعد لها العدة وارتضى الله أن يسبغ عليه صفة الطهر تثمينا لهذا الإخلاص في التوجه والصدق في العبودية بما تحمله من دلالات المعرفة والتعرف أو كما سماها النبي الخاتم درجة الإحسان التي ترفع العبد إلى سقف "أن تعبد ربك كأنك تراه" وما تحمله هذه الرؤية من معرفة.

ولا نعدم في هذا المقام من التدبر والطهر والاستغراق في كلام الله تعالى أن نستشعر إيماءات صوفية في غير ما شطح، لأن الغوص في عوالم هذا النص المكنون ليس متاحا إلا لمن أعدوا العدة عبر مراقي "الإحسان" سعيا إلى أن يبلغوا الحقيقة كما عبر عنها حاج حمد وهو يصف هذا السلوك بأنه "البحث عن الحقيقة (الحقيقة الإلهية الكلية المطلقة) من خلال التعلق بمصدرها وهو (الإله الأزلي)"[28]. وليس في الإمكان سلوك هذا الطريق من قبل نفوس مريضة، إذ "لا يمكن أن تصغي إلى كلام الله المبثوث في ثنايا النص من دون تفريغ النفس من وزرها الثقيل، وترك المجال للاستقبال والتلقي؛ وإلا فإننا نكرر أنفسنا أمام النص، ولن نجد حينئذ سوى انعكاسات نفوسنا المريضة، وما كنا نرغب في الحصول عليه عبر الانتقائية الانتهازية، والتحريف المعنوي"[29].

لهذا السبب، يلح حاج حمد على أهمية الوعي بطبيعة اللغة من حيث التوظيف والمحتوى اللذين ميزا النص الإلهي، لأن الله تعالى لم يتحد "أرباب العربية" ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين (23) فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾(سورة البقرة) إلا لكون هذه اللغة تمتلك في استخدامها الإلهي ما لا يستطيعه استخدامها البشري، لأنه يتطلب من الإمعان والتدبر الكثير ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان

من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾(سورة النساء: 82). لذلك، يستنتج أن "للقرآن لغته الاصطلاحية الدقيقة التي لم يعن بها التراثيون بالقدر الذي عنوا فيه بالمصدر البشري للغة، فهم قد دونوا لسان العرب ولم يدونوا لسان القرآن، إذ اعتقدوا بأن هذه من تلك، فانصرفوا للإعراب والبحث في بلاغة القرآن وعجائبه، ففسروا القرآن بدلالات ألفاظهم هم وليس بدلالات ألفاظ القرآن، كما استمدوا فهمهم للعائد المعرفي في ألفاظ القرآن من فهمهم هم لهذا العائد المعرفي على ضوء مكوناتهم الثقافية"[30].

نصل في الختام إلى ملاحظة تلك النقلة في المفهوم للآية الكريمة، التي بارحت مع القراءة من الداخل واعتماد القول باصطلاحية المفردة القرآنية وتميزها بعائدها المعرفي، إلى الحديث عن قراءة المكنون القرآني بدل التوقف عند حدود تنحو إلى "شكليات" حصرت مطلق الكتاب الحكيم وكرمه المجيد في مجرد لمس عضوي للكتاب مشروطا بالوضوء؛ فسطحت القراءة وألبست الآية أحكاما ليست فيها، جراء تعاملها مع قول رب العالمين بما ألفته من معهود العرب. وقد كان لهذا المنحى في إعادة كشف النص القرآني ما يبرهن على جدارته لما أتاحه من فضاءات جديدة لقراءة هذا الكتاب المبين الذي لا تنفد كلماته.

. 5- المقال يحتاج إلى أحكام نقدية للأفكار التي طرحها حاج حمد.

الهوامش:

***- محمد أبو القاسم حاج حمد مفكر سوداني معاصر، اهتم بالتأسيس لمشروع فكري حضاري يعتمد على قراءة جديدة للنص القرآني باعتباره نص منهج. ألف: - العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، - منهجية القرآن المعرفية،- ابستمولوجيا المعرفة الكونية،- الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن،- الحاكمية، - القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية، - جذور المأزق الأصولي، - تشريعات العائلة في الإسلام، - حرية الإنسان في الإسلام.**

1- أبو زيد نصر حامد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، ط 6، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص 9.

*- تعتبر هذه الصياغة تعريفا للنص القرآني، الذي يلخص تصور حاج حمد للقرآن الكريم من حيث إنه يعتبره مصدر المعرفة المطلق. ومن ثمة فهو كون نصي - بكل ما يحمل الكون من بنائية متناهية الإحكام- يتساوى مع الكون الطبيعي ونظامه المنضبط الدقة اعتمادا على قوله تعالى : ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم﴾ (سورة الحجر، الآية: 87).

2- حاج حمد محمد أبو القاسم، الانقلاب على الموروث الديني، (حوار)، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، ع:47 - 48، صيف وخريف 2011، بغداد، ص 72.

3- حاج حمد، حوار الأجيال أبو القاسم حاج حمد في مراسلات معرفية مع عبد الرحمن إبراهيم الحاج، موقع الشهاب www.chihab.net بتاريخ:2014/08/23.

4- المقراني عدنان، التجربة الدينية والنص، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، ع 47 - 48، صيف وخريف 2011، ص 22.

5- صبري حافظ، الحداثة والتجسيد المكاني للرؤية الروائية، مجلة فصول، ع:4، 1984، ص 162.

6- العلواني طه جابر، مراجعة كتاب "العالمية الإسلامية الثانية"، مجلة إسلامية المعرفة، ع 37 - 38، صيف / خريف 2004، ص 230.

7- حاج حمد محمد أبو القاسم، الانقلاب على الموروث الديني، ص 70.

8- حاج حمد، جذور المأزق الأصولي، ص ص 69، 70.

9- المرجع السابق، ص 22.

10- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تفسير الطبري : جامع البيان في تأويل آي القرآن، ط 1، ج 22، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2001، ص 362.

11- المرجع نفسه، ص ص 363، 364.

12- الطبري، تفسير الطبري، ص 364.

13- المرجع نفسه، ص 367.

14- حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية، ص 88.

15-حاج حمد، الإسلام ومنعطف التجديد، رؤية منهجية ومعرفية، (محاضرة)، بيت القرآن، البحرين، 7 ديسمبر 2004.

16- الفراهي عبد الحميد (1863 - 1930)، مفردات القرآن:نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، ط1، تح: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، 2002، ص 95.

17-المرجع نفسه، ص 95.

18- المرجع السابق، ص 98.

19-محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع،دمشق، سورية.ط 8، 2000 ص 189.

20- حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ط 3، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2012، ص 490.

21- العلواني طه جابر، إسلامية المعرفة فكرة ومشروعا، مجلة قضايا إسلامية، مؤسسة الرسول الأعظم، قم، إيران، ع 4، 1997.
22- الفراهي عبد الحميد، مفردات القرآن، ص 96.
23- المقراني عدنان، التجربة الدينية والنص، ص 19.
24- المرجع نفسه.
25- العسكري أبو هلال، الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، مصر، 1997، ص 23.
26- المرجع نفسه.
27- العسكري أبو هلال، الفروق اللغوية، ص 23.
28- حاج حمد، "التصوف ومرتبة عالم الأمر الإلهي"، (محاضرة)، الرباط، 09 سبتمبر 2004.
29- المقراني عدنان، التجربة الدينية والنص، ص 20.
30- حاج حمد، ابستمولوجية المعرفة الكونية، ص 275.